

محاضرة

السيد ظاهر المصري

بعنوان

الاردن والعرب والقطرية

في الجمعية البريطانية الاردنية

١٩٩٦/١١/١٢

ايتها السيدات ، ايها السادة ،

منذ بداية هذا القرن ، طغت على الاردن ظروف وعوامل جعلت حياته اليومية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ترتبط ارتباطا لا غنى عنه مع محيطه العربي المباشر اولاً (فلسطين ، سوريا ، العراق ، السعودية وحتى مصر) ومع محيطه العربي الابعد ثانياً بدرجات متفاوتة . وكثيراً ما طغى اهتمام الاردنيين بوضعهم مع العرب على اهتمامهم بشؤونهم . ولا اعرف بلداً عربياً واحداً يعيش مجتمعه المحلي حالته العربية مثل المجتمع الاردني .

ولم يأت هذا الامر من فراغ . فقد كانت علاقات السكان في شرق الاردن ترتبط وتتداخل مع التقسيمات الادارية في كل من فلسطين وسوريا والعراق ومع المملكة العربية السعودية في وقت لاحق ، كقبائل وكحضر .

وكان السبب الاول لذلك الارتباط عبر الحدود وليس باتجاه الداخل ، هو عدم وجود حدود حقيقية في ذلك الوقت ، وعدم وجود حكم او سلطة مركزية في شرق الاردن . وفي الحقبة اللاحقة ، عندما توزع ابناء الشريف حسين بن علي في بعض الاقاليم العربية ومنها شرق الاردن ، وارثين لدعوة اطلقها والدهم تدعو الى التخلص من الاستعمار والى توحيد المشرق العربي ، رحب الامير عبد الله بن الحسين في امارته بالقيادات العربية المشرقية التي تركت بلدانها نتيجة لاقتسام بريطانيا وفرنسا لهذه المناطق وفرض الحكم الاجنبي عليها ، او التي ناضلت ضد الحكم العثماني طلبا " للاستقلال والوحدة .

وجاء ترحيبه هذا منسجما" مع نضال عائلته ، ومع دعوة والده ومع طموحه الشخصي في توسيع نطاق حكمه . ومع تطور بناء الدولة ، بدأت شرعية الحكم تعتمد اكثر فاكثر على تلك الدعوة بالارتباط العربي ، واصبح ذلك سنة الحكم وسياسته منذ ان تولى جلالة الحسين الملك .

وجاء التطور الاعظم في هذا القرن ، وهو انشاء دولة اسرائيل على جزء كبير من اراضي فلسطين ، بعد حرب قصيرة وغير منظمة ، وبعد دخول الجيش العربي وعدد من الجيوش العربية الى الاراضي الفلسطينية للدفاع عن الارض وحماية السكان . ولما تمت الوحدة بين ضفتي نهر الاردن ، اصبح الالتحام الاردني مع فلسطين الارض والقضية التحاماً" شرعياً" ومتكاملاً" .

وعمق الاردن بذلك بعده وعمقه والتزامه العربي . وشهدت حقبة الثورة المصرية وجمال عبد الناصر تصاعداً" في الشعور والتفاعل القومي . وكان الاردنيون في ضفتي النهر ، يطربون لهذا النغم القومي ، الذي يناسب اصلاً" شعورهم وتوجههم . غير ان النكسات التي اصابت العرب ابتداء من حرب ١٩٦٧ ، وضياح كامل فلسطين للاحتلال الاسرائيلي ، وكذلك كامل سيناء وجزء من البر المصري ، والجولان ، وانهيار اسطورة عبد الناصر ثم وفاته بعد فترة قصيرة ، ادى ضمن ما ادى اليه الى بداية تغلب ظاهرة التفوق العربي القطري على المد القومي . وظهرت منظمة التحرير الفلسطينية التي بدأت بالعمل على تنمية الهوية الفلسطينية وحصر التعامل بالقضية الفلسطينية معها ، ورفعت شعار استقلالية القرار الفلسطيني . وكانت العلامات البارزة على هذا الطريق ، قرارات القمة العربية في الرباط عام ١٩٧٤ وقمة فاس عام ١٩٨٢ وقمة الجزائر عام ١٩٨٨ . وكذلك خروج منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت عام ١٩٨٢ وفك الارتباط بين الاردن والضفة الغربية عام ١٩٨٨ .

وكان من نتائج قمة الرباط انها جعلت من قضية سيناء قضية متعلقة بمصر ،

وقضية الجولان متعلقة بسوريا واصبح صراعنا مع اسرائيل صراع اطراف

منفصلة .

ومع انشاء مجلس التعاون الخليجي عام ١٩٨٠ ، ثم انشأ مجلسي التعاون العربي والمغاربي اللذين انفرط عقدهما بعد سنوات قليلة ، بدأت مؤسسات العمل العربي المشترك ، ابتداء من جامعة الدول العربية ، تتراجع تدريجيا" وتضعف . وبقي مجلس التعاون الخليجي صيغة ضعيفة من العمل المشترك بين اعضائه ، ولم يتقدم التنسيق بينهم ، بل انه ضعف وحل الوهن في مؤسساته . بمعنى آخر ، فان المنظمة الام ، جامعة الدول العربية ، قد تم نحرها بدون ايجاد بديل حقيقي عنها .

قمة التشردم العربي ظهرت بدون رتوش اثناء وبعد حرب الخليج ، وانكشف الغطاء تماما" عن المرض والوهن العربي . وسار كل بلد عربي في طريقه ، واصبحت القطرية هي العنوان البارز في معادلة الشرق الاوسط .

وتحول عيد الاستقلال الذي تحتفل به كل الدول العربية ابتهاجا" بالخلاص من المستعمر وتحرير الوطن من الاجنبي ، ليصبح سدا" رمزيا" امام الفكر الوحدوي وتذكيرا" مستمرا" بالحدود والقطرية والنأي عن العمل القومي . ولا يوجد الان في العالم العربي بلدا" الا وله مشاكل حدودية او غيرها مع بلد عربي مجاور او اكثر . واذا كنا قد غضبنا على اتفاقية سايكس- بيكو لأنها قسمتنا ورفعت الحدود بيننا ، فأننا نقوم الان بدور الحماة والمنفذين لهذه الاتفاقية .

وقد تزامن هذا الترددي العربي والانكفاء نحو القطرية ، مع التوجه العالمي لالغاء الدولة القطرية وانشاء دول التجمع الاقتصادي ، الذي يؤدي بالضرورة الى زيادة التنسيق السياسي ، وربما توحيد السياسات واقترب المجتمعات من بعضها البعض سياسيا" واجتماعيا" وثقافيا" . والاتحاد الاوروبي هو المثال الرائد في عالمنا المعاصر . وسوف تؤدي التكتلات الاقتصادية في انحاء متعددة من اسيا وامريكا الجنوبية الى نفس النتيجة ، ولكن ببطء اكبر وبوضوح اقل . ولكنها بالتأكيد هي خطوات على الطريق الصحيح .

كل هذه العوامل والتطورات العربية والاقليمية والدولية كانت تتجاذب الفكر السياسي والثقافي في المجتمع الاردني من كافة جوانبه وتعصف بالساحة السياسية فيه . وظهر نتيجة لذلك انقسام فكري بدأت ملامحه تتبلور مع ظهور فئات سياسية اصبح فكرها السياسي يعتمد على ترسيخ مبدأ القطرية وحماية الهوية الوطنية . وهو على كل حال توجه تشهده الدول العربية

بكل وضوح . وقويت شوكة هذه الفئات واصبح تمددها الافقي والعمودي ملحوظا" بعد ان ازدادت الشكوك بعدم
امكانية حل القضية الفلسطينية بشكل عادل يعيد للفلسطينيين ارضهم وحقوقهم الوطنية ، وبعد ان رفضت اسرائيل
بشكل كامل مبدأ حق العودة للفلسطينيين الى ارضهم ووطنهم ، وبعد ان اصبحت نظرية التوطين مطروقة في
المحافل الدولية والاقليمية . كما ان المخاوف تجددت مع تأليف الحكومة الاسرائيلية بزعامة الليكود حول العمل
باتجاه ايجاد وطن بديل للفلسطينيين .

وهنا اسارع بالقول بان قيام الدولة القطرية بمعناها السياسي المتعارف عليه ، اي الدولة الديمقراطية
المؤسسية التي تطبق مبدأ سيادة القانون وتواكب متطلبات العصر ، هي مطلب بل ضرورة . ولكنها ليست الهدف بل
هي خطوة للوصول للهدف . فنحن نريد الدولة القطرية لكي نستطيع ان نبني دولة الوحدة والاتحاد بين دول كل اقليم
عربي وبين كل اقليم عربي . واقصد هنا بالاقليم العربية دول المشرق العربي او الهلال الخصيب ، دول الجزيرة
العربية ، دول المغرب العربي ودول وادي النيل . ونحن في الاردن يجب ان نكون الرواد في دفع المسيرة العربية في
هذا الاتجاه ، وان نبدأ بأنفسنا . فالظروف التاريخية والموقع الجغرافي والتكوين السكاني والممارسة السياسية ،
امور تدفع وتؤيد ان يكون للاردن هذا الدور المميز .

والمصالح الاردنية الاساسية السياسية والاقتصادية مرتبطة مع محيطه العربي وسوف تبقى كذلك . وهذه ،
على كل حال ، هي ارادة الانسان الاردني الاصلية . وعندما ندعو الى قيام العلاقة الوحدوية بين دولنا ، فانها يجب ان
تبدأ افقيا" وتدرجيا" حتى تنضج الظروف والعوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية . عندها فقط نكون جاهزين
للوحدة او الاتحاد .

وسوف يكتشف الاردنيون بكافة مشاربهم وتوجهاتهم السياسية وكذلك العرب في كل اقطارهم ان التوقع
القطري لن يفيدهم او يحميهم امام الهيمنة الاسرائيلية والمشروع الصهيوني المستمر والطويل الامد . وان اسرائيل
سوف تقضم الاجزاء العربية تدريجيا" على مدى عقود من الزمن . تماما" كما فعلت الحركة الصهيونية في فلسطين
ما قبل عام ١٩٤٨ ، وكما فعلت وتفعل اسرائيل اليوم فيما بقي من ارض فلسطين . الحل الامثل في مواجهة اسرائيل
الكبرى التي تبنى امام اعيننا ولحمية التراب العربي في فلسطين والاردن وغيرها من الدول العربية هو في انشاء
سوريا الكبرى ووحدة الهلال الخصيب . واذا لم نفعل ذلك في القريب العاجل ونبني كياننا على هذا الاساس ، فاننا
سوف نبقى نحرث في البحر ، بل سوف نتطبق علينا قصة كليلة ودمنة : اكلت يوم اكل الثور الابيض .